

في هذه الزاوية، تفتح «الأداب» نفسها على ذاكرتها، فتعود إلى ماضيها، تكشف مفارقه، وعلاماته المضيئة، وهناته، وملاحظه، وآماله، وإحباطاته. وإذ تعود إلى ذلك الماضي، فإنها تسعى إلى وصل أجزائها، بالاغتناء من تجاربها، دون أن يعني هذا بالضرورة إثارة ما سلف منها على ما خلف، ولا جلد ذاتها على ما قصرت في القيام به أربعين عاماً أو تزيد.

إن ذاكرة «الأداب» ليست إلا ذكريات جيل عربي على مشارف

القرن الحادي والعشرين، يكشف أيامه الماضية - بما فيها من عزيمه وشباب وأحلام وجموح ونجاح وإخفاق - على خلفه أو مجاليه الجدد. وقد يعلّق صاحب المجلة أو مدير التحرير أو طرف ثالث على بعض ما جاء فيها، نقداً أو نقضاً أو تميناً أو إضاعة. وسوف ترصد «الذاكرة» أهم القصائد، أو المقالات، أو القصص القصيرة، أو الأبحاث النقدية، أو التمثيلات القصيرة، أو النصوص الشعرية، التي كان لها وقع في الساحة الثقافية العربية آنذاك، أو صار لها مثل هذا الوقع اليوم.

محطتنا الثانية تعود إلى «الأداب» قبل ستة وعشرين عاماً تماماً. ففي عدد «الأداب» لشهري تموز وأب (يوليو وأغسطس) عام ١٩٦٧، نشر الشاعر نزار قباني قصيدته «هوامش على دفتر النكسة». فلنترك الشاعر يحدثنا عن وقع القنبلة، وذلك في كتابه قصتي مع الشعر، وقد اقتطفنا مقاطع دالة منه، هي تلك التي تقع بين صفحتي ٢١٠ و٢١٩، وصفحتي ٢٣٦ و٢٤٣؛ علماً أن المقاطع الأخيرة لا تكتفي بعرض ملامح من انعكاس الهزيمة في وجدان المثقف الجزائري، وإنما تتخذ كذلك موقفاً مؤيداً من تعامل الرئيس جمال عبد الناصر مع المثقفين بشكل عام - وهو الموقف الذي اتخذته كذلك كوكبة من المثقفين، وعلى رأسهم رجاء النقاش - كما تدين المثقف الحقود النمام الذي يستخدم السلطة سلاحاً في وجه زملائه المثقفين.

س. س. إ.

ذكرة الآداب - ٢

هوامش

على دفتر النكسة

نزار قبّاني

- ١ -

أنعي لكم، يا أصدقائي، اللّغة القديمة ..
والكتّيب القديمة ..
أنعي لكم
كلامنا المثقوب كالأحذية القديمة ..
ومُفردات العهر، والهجاء، والشتيمه
أنعي لكم ..
أنعي لكم ..
نهاية الفكر الذي قاد إلى الهزيمة ..

- ٢ -

مالحة في فمنا القصائد
مالحة صفائر النساء
والليل، والأستار، والمقاعد
مالحة أمامنا الأشياء

- ٣ -

يا وطني الحزين
حوّلتني بلحظة ..
من شاعر يكتب شعر الحب والحنين
لشاعر يكتب بالسكين ..

- ٤ -

لأن ما نُحسّه
أكبر من أوراقتنا ..
لأبد أن نخجل من أشعارنا ..

- ٥ -

إذا خسرنا الحرب .. لا غرابه
لأننا ندخلها
بكل ما يملكه الشرقي من مواهب الخطابة
بالعتريّات التي ما قتلت ذبابه
لأننا ندخلها ..
بمنطق الطلبة والربابه ..

- ٦ -

السر في مأساتنا ..
صراخنا أضخم من أصواتنا ..
وسيفنا أطول من قاماتنا ..

- ٧ -

خلاصة القضية
توجز في عبارة
لقد لبسنا قشرة الحضارة
والروح جاهليّة ..

- ٨ -

بالنأي والزماز
لا يحدث انتصار ..

- ٩ -

كلّفنا ارتجالنا
خمسين ألف خيمة جديدة

- ١٠ -

لا تلعنوا السّاء
إذا تحلّت عنكم .. لا تلعنوا الطّروف
فالله يؤتي النصر من يشاء
وليس حدّاداً لديكم يصنع السيوف

- ١١ -

يوجعني أن أسمع الأنباء في الصّباح
يوجعني
أن أسمع التّبّاح ..

- ١٢ -

ما دخل اليهود من حدودنا ..
وإنما ..
تسرّبوا كالتمل .. من عيوبنا ..

- ١٣ -

خمسة آلاف سنه
ونحن في السرداب ..
ذقونا طويلاً ..
نقودنا مجهولة ..
عيوننا موائ الدباب
يا أصدقائي
جربوا أن تكسروا الأبواب ..
أن تغسلوا أفكاركم، وتغسلوا الأثواب ..
يا أصدقائي ..
جربوا أن تقرأوا كتاب ..
أن تكتبوا كتاب ..

أَنْ تَزْرَعُوا الحُرُوفَ، والرُّمَانَ، والأَعْنَابَ
أَنْ تُبْحَرُوا إِلَى بِلَادِ التَّلْجِ وَالضَّبَابِ
فَالنَّاسُ يَجْهَلُونَكُمْ . . .
فِي خَارِجِ السَّرْدَابِ . . .
النَّاسُ يَجْسَبُونَكُمْ
نوعاً مِنَ الذَّنَابِ . . .

- ١٤ -

جَلُودُنَا مَيِّتَةُ الإِحْسَاسِ
أَرَوَّاحُنَا تَشْكُو مِنَ الإِفْلَاسِ
أَيَّامُنَا . . . تَدُورُ بَيْنَ الزَّيَارِ، وَالشَّطْرُنْجِ، وَالتُّعَاسِ
هَل «نَحْنُ خَيْرُ أُمَّةٍ قَدْ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ؟»

- ١٥ -

كَانَ بَوَسِعَ نَفْسُنَا الدَّافِقِ فِي الصَّحَارِي
أَنْ يَسْتَحِيلَ خَنْجِراً مِنْ لَهَبٍ وَنَارٍ . . .
لَكِنَّهُ،
وَإِخْجَلَةَ الأَشْرَافِ مِنْ قَرِيشٍ

وَإِخْجَلَةَ الأَحْرَارِ مِنْ أَوْسٍ وَمِنْ نَزَارٍ
يُرَاقُ تَحْتَ أَرْجْلِ الجَوَارِي . . .

- ١٦ -

نَرَكُضُ فِي الشَّوَارِعِ
نَحْمَلُ تَحْتَ إِبطُنَا الحَبَالَا
نَمَارِسُ السَّحْلَ . . . بِلَا تَبْصُرٍ
نَحْطُمُ الزَّجَاجَ والأَقْفَالَا . . .
نَدْحُ كَالضَّفَادِعِ
نَشْتُمُ كَالضَّفَادِعِ
نَجْعَلُ مِنْ أَقْرَامِنَا أَبْطَالَا . . .
نَجْعَلُ مِنْ أَشْرَافِنَا أُنْدَالَا . . .
نَرْتَجِلُ البَطُولَةَ ارْتِجَالَا

نَقْعُدُ فِي الجَوَامِعِ

تَنَابِلَا . . . كُسَالِي

نُشْطِرُ الأَبْيَاتِ . . . أَوْ نُؤَلِّفُ الأَمْثَالَا . . .

وَنَشْحَذُ النُّصْرَةَ عَلَى عَدُونَا

مِنْ عِنْدِهِ تَعَالَى . . .

- ١٧ -

لَوْ أَحَدٌ يَمْنَحُنِي الأَمَانَ
لَوْ كُنْتُ أُسْتَطِيعُ أَنْ أَقَابِلَ السَّلْطَانَ
قَلْتُ لَهُ: يَا سَيِّدِي السَّلْطَانَ
كَلَابُكَ المَفْتَرَسَاتُ مَزَّتْ رِدَائِي . . .

وَمُجْبِرُوكَ دَائِماً وَرَائِي

عِيُونُهُمْ وَرَائِي . . .

أَنُوفُهُمْ وَرَائِي . . .

أَقْدَامُهُمْ وَرَائِي . . .

كَالقَدْرِ المَحْتَمِ، كَالقَضَاءِ . . .

يَسْتَجِيبُونَ زَوْجَتِي . . .

وَيَكْتَبُونَ عِنْدَهُمْ أَسْمَاءَ أَصْدِقَائِي . . .

يَا حَضْرَةَ السَّلْطَانَ

لَأَنْتِي أَقْتَرْتُ مِنْ أَسْوَارِكَ الصَّبَاءِ

لَأَنْتِي . . .

حَاولْتُ أَنْ أَكْشِفَ عَن حَزَنِي وَعَن بِلَائِي

ضَرَبْتُ بِالْحِذَاءِ . . .

هل كان عليّ يا ترى - انسجاماً مع منطقي الفني - أن أنتظر
انحسار مياه الطوفان؟. وبالتالي هل كان على الأدب العربي،
شعراً، ورواية، ومسرحية، أن يضع أعصابه في ثلاجة، حتى ترحل
العاصفة، وتنحسر الغيوم الرمادية، وينبت للشجر المحترق أوراق
جديدة(. . .)؟

نُشِرَتْ القصيدة أَوَّلَ مَا نُشِرَتْ فِي مَجَلَّةِ الأَدَابِ اللَّبْنَانِيَّةِ . وَلَمْ أَكُنْ
مَتَأَكِّداً حِينَ دَفَعْتُ القَصِيدَةَ إِلَى الصَّدِيقِ سَهِيلِ إِدْرِيسِ أَنَّهُ
سَيَنْشُرُهَا . فَخَطَّ سَهِيلُ إِدْرِيسِ القُومِيَّ خَطَّ مَتَفَائِلِ، وَأَحْلَامِهِ
العَرَبِيَّةَ مَشْرَبَةً دَائِماً بِاللُّونِ الوَرْدِيِّ . لَكِنْ حِينَ جَاءَ سَهِيلُ إِدْرِيسِ
إِلَى مَكْتَبِي ذَاتَ صَبَاحٍ، وَقَرَأْتُ لَهُ القَصِيدَةَ صَرَخَ كَطَائِرِ يَنْزِفٍ:
أَنْشُرُهَا . . . أَنْشُرُهَا . . .

قَلْتُ لَسَهِيلٍ: إِنَّ القَصِيدَةَ مِنْ نَوْعِ العَبَوَاتِ النَّاسِفَةِ الَّتِي قَدْ
تَحْرَقُ مَجَلَّتَهُ، أَوْ تَعَرَّضُهَا لِلإِغْلَاقِ أَوْ المَصَادِرَةِ، وَأَنْتِي لَا أَرِيدُ أَنْ
أَوْرَظَهُ وَأَكُونَ سَبِيباً فِي تَدْمِيرِ المَجَلَّةِ .

نَظَرْتُ إِلَيْ سَهِيلِ بَعَيْنَيْنِ حَزِينَتَيْنِ تَجَمَّعَتْ فِيهَا كُلَّ أَمْطَارِ الدُّنْيَا،
وَكَلَّ أَشْجَارِ الخَرِيفِ المَتَكَسِّرَةِ، وَقَالَ بِنَسْبَةٍ يَمْتَرِجُ فِيهَا الأَلَمَ الكَبِيرَ
بِالصَّدَقِ الكَبِيرِ:

(. . .) إِنَّ حَزِيرَانَ كَانَ ثَمرةً شَدِيدَةَ المَرَارَةِ . بَعْضُنَا أَكَلَهَا،
وَبَعْضُنَا اعْتَادَ تَدْرِيجِيّاً عَلَى مَذَاقِهَا، وَبَعْضُنَا تَقَيَّأَهَا فَوْرًا .

أَنَا كُنْتُ مِنَ الفَتَةِ الأَخِيرَةِ الَّتِي أَضْرَبَتْ عَنِ الطَّعَامِ، وَرَفَضْتُ
الإِعْتِرَافَ بِالجِنِينِ المَشْهُوعِ الَّذِي طَرَحَتْهُ رَجْمُ حَزِيرَانَ .

قَصِيدَتِي «هُوَامِشُ عَلَى دَفْتَرِ التَّكْسَةِ» كَانَتْ المَانِيفِستُو الَّذِي
ضَمَّنْتُهُ إِحْتِجَاجِي وَمَعَارَضِي(. . .)

كَتَبْتُ «هُوَامِشُ» فِي مَنَاحِ المَرَضِ وَالمُذْيَابِ وَفَقْدَانِ الرِّقَابَةِ عَلَى
أَصَابِعِي . لِذَلِكَ جَاءَتْ بِشَكْلِ شَحْنَاتٍ مَتَقَطَّعَةٍ، وَصَدْمَاتٍ
كَهَرَبَائِيَّةٍ مَتَلَحِّقَةٍ، تَشْبَهُ صَدْمَاتِ التِّيَّارِ العَالِيِ التَّوْتَرِ . كَمَا أَنَّهَا مِنْ
حَيْثُ الشَّكْلِ لَمْ تَكُنْ تَشْبَهُ أَيْباً مِنْ قِصَائِدِي المَاضِيَةِ . كَانَتْ مِثْلِي
مَبْعُوثَةً وَمَتَنَاثِرَةً كِبَقَايَا طَائِرِ الفِينِيْقِ .

إِنِّي لَا أَذْكَرُ أَنِّي كَتَبْتُ فِي كُلِّ حَيَاتِي الشَّعْرِيَّةَ قَصِيدَةً بِمِثْلِ هَذِهِ
الحَالَةِ العَصِيْبَةِ وَالتَّهْيِيجِ .

التَّهْيِيجُ هُوَ ضِدُّ الشَّعْرِ . أَنَا أَعْرِفُ ذَلِكَ، وَلَكِنِّي أَعْرِفُ لَكُمْ أَنَّ
هَذَا قَدْ حَدَثَ، وَأَنْتِي لِلْمَرَّةِ الأُولَى أَخَالَفُ تَقَالِيدِي الكِتَابِيَّةَ
الصَّارِمَةَ، وَأَتَعَامَلُ مَعَ الإِنْفِعَالِ تَعَامُلاً مَبَاشِراً .

أرغمني جندك أن أكل من حذائي . .

يا سيدي . .

يا سيدي السلطان . .

لقد خسرت الحرب مرتين

لأن نصف شعبنا

ليس له لسان . .

ما قيمة الشعب الذي

ليس له لسان؟

لأن نصف شعبنا

محاصر كالتمل والجردان

في داخل الجدران

لو أهدد بمنحني الأمان

من عسكري السلطان

قلت له :

لقد خسرت الحرب مرتين

لأنك انفصلت عن قضية الإنسان . .

- ١٨ -

لو أننا لم ندفن الوحدة في التراب

لو لم نمزق جسمها الطري بالحراب

لو بقيت في داخل العيون والأهداب

لما استباححت لحمنا الكلاب . .

- ١٩ -

نريد جيلاً غاضباً

نريد جيلاً يفلح الآفاق

وينكش التاريخ من جذوره

وينكش الفكر من الأعماق

نريد جيلاً قادماً مختلف الملامح

لا يغفر الأخطاء. لا يسامح

لا ينحني. لا يعرف التفاق

نريد جيلاً . . رائداً . . عملاقاً

- ٢٠ -

يا أيها الأطفال

من المحيط للخليج ، أنتم سنابل الأمل

وأنتم الجيل الذي سيكسر الأغلال

ويقتل الأفيون في رؤوسنا . .

ويقتل الخيال . .

يا أيها الأطفال ، أنتم ، بعد ، طيبون

وطاهرون ، كالندى والثلج ، طاهرون

لا تقراوا عن جيلنا المهزوم. يا أطفال

فحنن خائبون . .

ونحن ، مثل قشرة البطيخ ، تافهون

ونحن ، منحورون . . منحورون كالنعال . .

لا تقراوا أخبارنا

لا تقتفوا آثارنا

لا تقبلوا أفكارنا

فحنن جيل القيء ، والزهرى ، والسعال

ونحن جيل الدجل ، والرقص على الجبال ،

يا أيها الأطفال

يا مطر الربيع ، يا سنابل الأمل

أنتم بذور الخصب في حياتنا العقيمة

وأنتم الجيل الذي سيهزم الهزيمة

«هوامش على دفتر النكسة» ، فهو معروف لدى كل من تابع وقائع

المعركة في حينها .

إلا أنه يمكن تلخيص عناصرها الرئيسية بالنقاط التالية :

(١) أنا شاعر وهبتُ روعي للشيطان وللمرأة وللغزل الفاحش .

فلا يحق لي ، بالتالي ، أن أكتب شعر الوطنية .

(٢) أنا المسؤول الأول عن هزيمة حزيران ، بما كتبتُه ونشرته

خلال عشرين عاماً ، من شعرٍ عاطفي ساعد على انحلال أخلاق

الجيل الجديد .

(٣) أنا في «هوامش على دفتر النكسة» سادئ ، أعدب أمي ،

وأرقص فوق جراحها .

(٤) أنا أثبط الهمم ، وأقتل الأمل ، وبالتالي فأنا عميلٌ أخدم

بكلامي مصلحة العدو . . . ولذا يجب شطب اسمي من قائمة

العرب .

(٥) أنا لست وطنياً ، ولكنني أركب موجة الوطنية . وولادتي بعد

حزيران - كشاعر ثوري - ولادة غير طبيعية .

كلُّ هذه النعوت والأوصاف والإدانات لم ترمني على الأرض . بل

إذا كان حزيران قد دمر كلُّ أحلامنا الجميلة . . وأحرق الأخضر

واليابس ، فلماذا تبقى «الأدب» خارج منطقة الدمار

والحراق؟ . . هات القصيدة . .

وأعطيتُ القصيدة . وصدقتُ توقعاتي وتوقعاته ، إذ صودرت

المجلة ، وأحرقَتْ أعدادها في أكثر من مدينة عربية . وجلسنا في

بيروت ، سهيل وأنا ، نتفرج على ألسنة النار ، ونرثي لهذا الوطن

الذي لم تعلمه الهزيمة أن يفتح أبوابه للشمس وللحقيقة .

لكن «هوامش على دفتر النكسة» لم تستسلم للقمع والمطاردة ، بل

أخذتُ تتناسل كما تتناسل الأرناب بشكل خرافي : كل نسخة كانت

تلد عشر نسخ . . وازدهرت عمليات النسخ والطبع على آلات

الرونيو (. . .)

وابتدأت ردود الفعل تأتي من كلِّ مكان في الوطن العربي :

قبلاّت من هنا ، وشتائمٌ من هناك . . أزهارٌ من هذا ، وأشواكٌ من

ذاك . . غزلٌ من صوب ، وطلقات رصاص من صوب آخر . .

تقدّيسٌ من فئة ، وتكفيرٌ من فئة أخرى (. . .)

ويكاد يكون من المستحيل أن أستعيد الآن جميع ما قيل عن

على العكس، كنتُ أشعر أن قامتي تزدادُ طولاً، وأُنِّي استطعت بقصيدي أن أحرّك الجهاز العصبيّ للأمة العربيّة، وأُخرج العقل العربي من غرفة التّخدير (...).

لم يكن في نيتي عندما كتبتُ «الهوامش» أن أمارس تعذيبَ النَّفس، أو تعذيبَ الآخرين، ولا أن أسرقَ أضواء الكاميرا وأكسر مزارب العين حتّى أشتهر. ففي ساعاتِ الحزن الكبير تنكسر كلُّ الكاميرات.. ويصبح المجدُّ باطل الأباطيل.

ثمّ.. ما هو هذا المجد الذي يأكل من جثة التّاريخ، ويتدرع في ظل الموت والخرائب؟

كلّ ما فعلته هو أنّي استقلتُ من وظيفة مغنٍّ في الكورس الجماعي، ورفضتُ نصوص الأناشيد التي كانت تجرّها الجوقة بشكل غريزيّ.

استقالي لم تقبلها القبيلة؛ إذ ليس من عادات القبائل أن تسمح لأولادها بالخروج على طاعتها ومناقشة آرائها بشكل علنيّ.

ليس من عادة القبيلة - آية قبيلة - أن تقبل بمبدأ «النقد الذاتي»؛ فالصّحراء شديدة الغرور، وشمسها سيف نحاسي لا يقنن بأيّ جدلٍ أو حوار.

النقد الذاتي شيء مخالف للطبيعة العربيّة. وقناعة العربي بتفوّقه، وتميّزه، وسوبرمانيته، قناعة لا تُقهَر (...).

ولذلك لم يصدّق أكثر العرب قصيدي لدى نشرها للمرّة الأولى. صدمتهم صيغتها، ولغتها، وأفكارها، ونبرتها القاسية. كانوا قد أدمنوا «ديوان الحماسة» واستلقوا على وسائده المريحة. وكانوا واثقين من أنهم وحدهم يشربون الماء صرفاً «ويشربُ غيرهم كدراً وطنياً».

وهنا حدث الانكسار الكبير بين ذكراهم وواقعهم، بين الحلم وبين التّطبيق.

ولم تكن الشّطايا التي انغرزت في لحمي بعد نشر «الهوامش» سوى نتيجة طبيعيّة لتعظيم الرّجاج الملون في نفس الإنسان العربيّ، وسقوط مفهوم الوطنيّة بمعناه الديماغوجي والعشائري؛ هذه الوطنيّة التي كانت لا ترى ولا تسمع ولا تحفظ سوى بيت واحد من الشّعر يمثّل التعصّب القبلي في أعلى درجاته:

وما أنا إلا من غزّيّة.. إن غوث

غويث وإن ترشّد غزّيّة أرشد..

إنّي بكلّ تأكيد أنتمي لغزّيّة.. بالولادة، واللّغة، والميراث. ولكن انتمايي إليها لا يعني بصورة من الصّور إلغاء عقلي وبصيرتي، وسكوتي على حماقات غزّيّة، وحماقات من يحكمونها (...).

ولكي يكتمل هذا الفصل عن حزيران، وعمّا نالني بسببه من صلب، ورجم، وتشهير، ونحوين، أجد أنّ الأمانة التّاريخيّة تقتضي أن أسجّل للرئيس الراحل جمال عبد الناصر موقفاً لا يقفه عادة إلاّ عظماء النَّفس، واللّاحون، والموهوبون الذين انكشفت بصيرتهم، وشفّت رؤيتهم، فارتفعوا بقيادتهم وتصرفاتهم إلى أعلى مراتب الإنسانيّة والسّموّ الروحيّ.

فلقد وقف الرئيس عبد الناصر إلى جانبي، يوم كانت الدّنيا تُرعد وتُطمط على قصيدي «هوامش على دفتر النكسة»، وكسّر الحصار الرّسمي الذي كان يحاول أن يعزلي عن مصر، بتحريض وإجاء من بعض «الزملاء» الذين كانوا غير سعداء لانتساع قاعدتي الشّعبيّة في مصر، فرأوا أنّ أفضل طريقة لإيقاف مدّي الشّعريّ، وقطع جسوري مع شعب مصر، هي استعداء السّلطة عليّ؛ حتّى إنّ أحدهم طالب وزارة الإعلام، بمقال نشره في إحدى المجلّات القاهريّة، بحرق كتيبي، والامتناع عن إذاعة قصائدي المغنّة من إذاعات القاهرة، ووضع اسمي على قائمة المنوعين من دخول مصر.

وحين شعرت أنّ الحملة خرجت من نطاق النّقد والحوار الحضاريّ، ودخلت نطاق الوشاية الرّسميّة، قرّرت أن أتوجّه مباشرة إلى الرئيس جمال عبد الناصر. وبالفعل بعثت إليه بالرسالة التّالية:

«سيادة الرئيس جمال عبد الناصر

في هذه الأيام التي أصبحت فيها أعصابنا رماداً، وطوّقتنا الأحزان من كلّ مكان، يكتب إليك شاعر عربي يتعرّض اليوم من قبل السّلطات الرّسميّة في الجمهوريّة العربيّة المتّحدة لنوعٍ من الظلم لا مثيل له في تاريخ الظلم.

وتفصيل القصة أنني نشرت في أعقاب نكسة الخامس في



العربي. كيف نريده؟ حرّاً أم نصف حرّ؟ شجاعاً أم جباناً؟ نبياً أم مهرجاً؟

القضية هي أن يسقط أيّ شاعر تحت حوافر الفكر الغوغائي لأنّه تفوّه بالحقيقة.

والقضية، أخيراً، هي أن نعرف ما إذا كان تاريخ هـ حزيران سيكون تاريخاً نولد فيه من جديد، بجلود جديدة، وأفكار جديدة، ومنطق جديد.

قصيدي أملك يا سيادة الرئيس، أرجو أن تقرأها بكلّ ما عرفناه عنك من سعة أفق، وتُعدّ رؤية. ولسوف تقتنع، برغم ملوحة الكلمات ومرارتها، بأنّني كنت أنقل عن الواقع بأمانة وصدق، وأرسم صورة طبق الأصل، لوجهنا الشاحبة والمرهقة.

لم يكن بإمكاني، وبلادي تحترق، الوقوف على الحياد؛ فحياد الأدب موت له.

لم يكن بوسعي أن أقف أمام جسد أمّي المريض، أعالجه بالأدعية والحجابات والضراعات.

حزيران قصيدة عنوانها «هوامش على دفتر النكسة» أودعتها خلاصة ألمي وتمزّقي، وكشفتُ فيها عن مناطق الوجع في جسد أمّي العربيّة، لاقتناعي أنّ ما انتهينا إليه لا يعالج بالتوّاري والهروب، وإنما بالمواجهة الكاملة لعيوبنا وسيئاتنا.

وإذا كانت صرختي حادة وجارحة - وأنا أعترف سلفاً بأنّها كذلك - فلأنّ الصرخة تكون بحجم الطعنة، ولأنّ التزييف يكون بمساحة الجرح.

مَنْ مِنّا يا سيادة الرئيس لم يصرخ بعد هـ حزيران؟
مَنْ مِنّا لم يحدش السّاء بأظافره؟
مَنْ مِنّا لم يكره نفسه وثيابه وظلّه على الأرض؟

إنّ قصيدي كانت محاولة لإعادة تقييم أنفسنا كما نحن، بعيداً عن التبجّح والمغالاة والانفعال، وبالتالي كانت محاولة لبناء فكر عربي جديد يختلف بملاحمه وتكوينه عن فكر ما قبل هـ حزيران.

إنّني لم أقل أكثر ممّا قاله غيري، ولم أغضب أكثر ممّا غضب غيري، وكلّ ما فعلته أنّني صنعت بأسلوب شعري ما صاغه غيري بأسلوب سياسي أو صحفي.

وإذا سمحت لي يا سيادة الرئيس أن أكون أكثر وضوحاً وصراحة، قلت إنّني لم أتجاوز في قصيدي نطاق أفكارك في النقد الذاتيّ، يوم وقفت بعد النكسة تكشف بشرف وأمانة حساب المعركة، وتعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله.

إنّني لم اخترع شيئاً من عندي؛ فأخطاء العرب النفسية والسياسية والسلوكية مكشوفة كالكتاب المفتوح.

وماذا تكون قيمة الأديب يوم يجبن عن مواجهة الحياة بوجهها الأبيض ووجهها الأسود معاً؟ ومن يكون الشاعر يوم يتحوّل إلى مهرج يمسح أذيال المجتمع وينافق له؟.

لذلك أوجعني يا سيادة الرئيس أن تُمنح قصيدي من دخول مصر، وأن يُفرض حصار رسمي على اسمي وشعري في إذاعة الجمهورية العربية المتحدة وصحافتها.

والقضية ليست قضية مصادرة قصيدة أو مصادرة شاعر. لكنّ القضية أعمق وأبعد. القضية هي أن نحدّد موقفنا من الفكر

ومؤلفاته، ويُطلب إلى وزارة الإعلام السّاح بتداول القصيدة.
٣ - يدخل الشاعر نزار قبّاني إلى الجمهورية العربيّة المتّحدة متى أراد، ويكرّم فيها كما كُرّم في السّابق.

التّوقيع: جمال عبد النّاصر

بعد كلمات جمال عبد النّاصر، تغيّر الطّقس، وتغيّر اتجاه الرّياح، وتفرّق المشاغبون وانكسرت طبيعتهم، ودخلت «الهوامش» إلى مصر بحماية عبد النّاصر، ورجعتُ أنا إلى القاهرة مرّةً بعد مرّةً.. لأجد شمس مصر أشدّ بريقاً، ونيلها أكثر اتّساعاً، ونجومها أكثر عدداً.

إنّني أروي هذه الحادثة التي لا يعرفها إلاّ القلّة من أصدقائي، لأنّها تتجاوز دائرة الأسرار الخصوصيّة، لتأخذ شكل القضيّة العامّة.

ففضيّي مع الرّئيس عبد النّاصر ليست قضيّة شخصيّة، أي علاقة بين قصيدة ممنوعة وريب يمنها. إنّها تتخطى هذا المفهوم الضيّق، لتناقش من الأساس طبيعة العلاقة بين من يكتب ومن يحكم، بين الفكر وبين السّلطة.

فالعلاقة بين الكتابة وبين الحكم علاقة غير سعيدة، لأنّها علاقة قائمة في الأصل على سوء الفهم وانعدام الثقة. لا الكاتب يستطيع أن يتخلّى عن غريزة الكلام، ولا الحاكم يقبل أن يسمع صوتاً غير صوته، وإذا قبل أن يستمع فلا يطربه إلاّ صوت الكورس الرّسمي. ومنذ القديم كان الكلام يقف في جهة، والمقصلة تقف في الجهة المقابلة. ومع هذا لم يتوقّف الكلام، ولم تتعب المقصلة.

وفيما يتعلّق بالحاكم العربي، فقد تعودّ - وراثياً - أن ينام على سرير من قصائد المديح والإطراء، وأن تُحمل إليه أشعار الشّعراء على صواني الفضة. إنّهُ مقتنع - بحكم العادة - أنّه شمس.. وأنّه كوكب.. وأنّه مطرٌ كالسحاب، وكريم كالبحر، «فليتق الله سائله».

والحاكم العربي الحديث هو ابنُ آبائه، يحمل ملامحهم النفسيّة، ونقاط ضعفهم، وقناعاتهم بالتفرد والعصمة. ولا يتصوّر أنّ في قاموس الحكم كلمة «لا»، لأنّ أذنه أدمنت كلمة «نعم» ورينها السّحريّ.

لقد كسر الرّئيس عبد النّاصر بموقفه الكبير جدار الخوف القائم بين الفنّ وبين السّلطة، بين الإبداع وبين الثّورة. واستطاع أن يكتشف - بما أوتي من حدسٍ وشمول في الرّؤية - أنّ الفنّ والثّورة توأمان سيّاميان ملتصقان، وحصانان يجران عربيّةً واحدة، وأنّ كلّ محاولة لفصلهما سيحطّم العربيّة ويقتل الحصانين.

فالذي يحبّ أمته، يا سيادة الرّئيس، يطهّر جراحها بالكحول، ويكوي - إذا لزم الأمر - المناطق المصابة بالنّار.

سيادة الرّئيس، إنّني أشكوك الموقف العدائي الذي تفقه منّي السّلطات الرّسميّة في مصر، متأثرة بأقوال بعض مرتزقة الكلمة والمتاجرين بها. وأنا لا أطلب شيئاً أكثر من سماع صوتي. فمن أبسط قواعد العدالة أن يُسمح للكاتب أن يفسّر ما كتبه، وللمصلوب أن يسأل عن سبب صلبه.

لا أطالب يا سيادة الرّئيس، إلاّ بحرّيّة الحوار؛ فأنا أشتّم في مصر ولا أحد يعرف لماذا أشتّم؛ وأنا أظن بوطنيّتي وكرامتي لأنّني كتبت قصيدة، ولا أحد قرأ حرفاً من هذه القصيدة.

لقد دخلتُ قصيدتي كلّ مدينة عربيّة وأثارت جدلاً كبيراً بين المثقّفين العرب إيجاباً وسلباً، فلماذا أحرم من هذا الحقّ في مصر وحدها؟ ومتى كانت مصر تغلق أبوابها في وجه الكلمة وتضيق بها؟

يا سيدي الرّئيس...

لا أريد أن أصدّق أنّ مثلك يعاقب النّازف على نزيفه، والمجروح على جراحه، ويسمح باضطهاد شاعر عربي أراد أن يكون شريفاً وشجاعاً في مواجهة نفسه وأمته، فدفع ثمن صدقه وشجاعته.

يا سيدي الرّئيس...

لا أصدّق أن يحدث هذا في عصرك.

بيروت في ٣٠ تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٩٦٧

نزار قبّاني

ولم يطلّ صمت عبد النّاصر، ولم تمنعه مشاكله الكبيرة، وهومومه التي تجاوزت هموم البشر، من الاهتمام برسالتني. فقد روى لي أحد المقرّبين منه، أنّه وضع خطوطاً تحت أكثر مقاطع الرّسالة وكتب بخطّ يده التّعليقات الحاسمة التّالية:

١ - لم أقرأ قصيدة نزار قبّاني إلاّ في النّسخة التي أرسلها إليّ. وأنا لا أجد أيّ وجه من وجوه الاعتراض عليها.

٢ - تلغى كلّ التّدابير التي قد تكون اتخذت خطأً بحقّ الشّاعر